

العصفورة اللي نسيت تطير

حمادة حامد محمود نور الدين

العصفورة اللي نسيت تطير

في شجرة توت كبيرة جنب ترعة صغيرة، كانت عايشة عصفورة اسمها نونو. نونو كانت أصغر عصفورة في السرب كله، وأحلى واحدة فيهم صوتًا. لما تغني الصبح، الفلاحين اللي ماشيين على الترعة كانوا يوقفوا يبصوا فوق ويبتسموا، من غير ما يعرفوا اسمها.

وفي يوم من أيام الخريف، الكبير بتاع السرب وقف على أعلى فرع، وقال الكلمة اللي كل العصافير كانت مستنياها: «بكرة نسافر. الجو هيبرد، والرحلة طويلة، واللي هينام متأخر هيتعب.»

كل العصافير نامت بدري الليلة دي. كلهم، إلا نونو.

نونو كانت قاعدة على الفرع بتاعها، بتبص للجناحين الصغيرين بتاعها، وقلبها بيدق. الرحلة دي معناها أيام وايام فوق البحر المفتوح، من غير شجرة ولا ترعة ولا حاجة تحتها غير مية. ونونو، سرها الصغير اللي محدش يعرفه، كانت بتخاف من المية. كانت بتفتكر الموج وهو بيعلى، وبياخد الهوا اللي بيشيل جناحاتها.

وطول الليل وهي بتقول لنفسها: «بكرة هطير. أكيد بكرة هطير.»

ولما بكرة جه، والسرب طلع في السما صف واحد كبير زي حرف مكتوب بالقلم، نونو فضلت مكانها. حاسة إن رجليها مسكين الفرع ولا هي عارفة تمسكه. والسرب بعد، وبعد، لحد ما بقى نقط سودا صغيرة، وبعدين مفيش.



أول يوم لوحدها كان حلو، على فكرة. الشجرة كلها شجرتها. أكلت التوت اللي محدش بقى يزاحمها عليه، وغنت من غير ما حد يقولها

«نوّني من بدري؟»، ونامت وهي مبسوطة إنها قررت قرارها بنفسها.

بس أول ليلة كانت أصعب. الضلمة من غير السرب ليها أصوات مختلفة: البومة اللي في الجامع القديم بتقول «هو... هو» كل شوية، والترعة بتتحرك في هدوء، والفروع بتخبط في بعضها مع الريح. نونو كانت قبل كده لو خافت بالليل بتتحشش بين أخواتها لحد ما الخوف يعدي. المرة دي، ما كانش في حد جنبها. فعملت حاجة عبقرية: غنت لنفسها، بصوت واطي جدًا، نفس الغنوة اللي الفلاحين بيحبوها. ومع أول سطر، اكتشفت إن صوتها بيدفي المكان حواليها، زي لمبة صغيرة. ونامت.

بس الأيام بدأت تبرد.

الريح جه من الشمال، والتوت قل، والترعة لونها بقى رمادي. ونونو اكتشفت إن البقاء مش قرار واحد بتاخده مرة، وخلاص. البقاء قرار بتاخده كل يوم، من أول ما تفتح عينيك لحد ما تقفلهم.

كل صبح، كانت لازم تدور على الأكل في أماكن ما كانتش تعرفها، لأن الأماكن اللي تعرفها خلصت. وفي يوم، وهي بتنقّر في حتة أرض، سمعت حفيف، وبصت لقيت قطة رمادية كبيرة قاعدة تحت الشجرة بتتفرج عليها بنفس طريقة اللي بنتفرج بيها على التلفزيون. قلب نونو وقع في رجليها، بس جناحاتها — اللي كانت خايفة عليهم من البحر — اتحركوا لوحدهم، وطلعت بيها أعلى فرع في الشجرة في ثانية واحدة.

وهي قاعدة بتنهج، حصلت حاجة غريبة: ضحكت. ضحكت لأنها اكتشفت إن جناحاتها دي أذكى منها. هي اللي كانت خايفة. هما ما كانوش خايفين أبدًا.



ومر الأسبوع، ونونو بقت تعرف الحي كله: القطة الرمادية بتيجي امتى، والنسر اللي فوق مبيروحش فين، وأنور ابن صاحب بيت الطين اللي بيحط فتات عيش تحت الشجرة كل يوم بعد ما يفطر. وأنور ده اتعرف عليها من غير كلام. كان كل يوم يقف تحت الشجرة ويبص فوق، ونونو تنزل على أقرب فرع وتبصله، وهو يقول: «أنتي الوحيدة اللي فضيتي يا عصفورة. أنا كمان بحب أفضل هنا.» وبعدين يروح مدرسته، ونونو تفتكر إن ممكن الإنس والعصافير يتشابهوا أوي في الحاجات دي.

وواحد واحد، الخوف الكبير اللي كان ساكن في صدرها، بقى صغير، زي حبة لب.

وفي أبرد ليلة في السنة، الليلة اللي النجوم فيها كانت قريبة كأنها لامعة جنب الشجرة، نونو كانت قاعدة ملفوفة في ورقتين جافين، وبتفتكر السرب. مش بتفتكر الرحلة. بتفتكر أخواتها، وصوتهم وهم بيغنوا مع بعض، والدفا اللي بيبقى فيه خمسين عصفور واقفين جنب بعض على فرع واحد.

وعرفت الحقيقة اللي كانت مستخبية في قلبها من اليوم الأول: هي ما فضلتش عشان شجاعة. ولا عشان جبن، زي ما كانت خايفة تكون. هي فضلت عشان كانت محتاجة تتعلم حاجة، والشجرة علمتهالها: إنها تقدر تعتمد على نفسها. ودلوقتي، بعد ما اتعلمت، بقت حرة تختار من تاني.

والربيع جه.

الدفا رجع للترعة، والتوت طلع أخضر صغير، وفي صبح من الصبحات، نونو وقفت على أعلى فرع، زي الكبير بتاع السرب

بالظبط، وبصت للجنوب.

وقالت لنفسها، مش «بكرة هطير» المرة دي. قالت: «النهارده.»

وطارت.

الرحلة خدت يومين. أول يوم عدت فوق الترعة اللي ربتها، وفوق بيت أنور — ولقت الفتات تحت الشجرة مستنيها، فهبطت دقيقة، أكلت لقمة وداع، وطارت تاني. وعدت فوق حقول البرسيم الخضرا، وفوق قناة مية بتلمع في الشمس زي سلك فضة، واكتشفت إن المية من فوق شكلها حلو، مش مخيف. الموج الصغير بيلمع بس، مش بيبلع حد. الريح ساعدتها، وجناحاتها ماشية معاها كأنها عارفة الطريق من زمان.

تاني يوم، السما قلبت شوية، والريح جت من قدام، ونونو تعبت. بس المرة دي ما قالتش «مش قادرة». قالت زي ما كانت بتقول كل يوم في الشتا: «شوية كمان. بس شوية كمان.» والشوية ورا الشوية، لقت شجرة النخيل الكبيرة قدامها. ولما شافت من بعيد النقط السودا اللي على شجرة النخيل الكبيرة، قلبها بقى أكبر من

جسمها كله، وغنت وهي طايرة، غنت أحلى غنوة في حياتها، والسرب كله سمعها قبل ما يشوفها.



وبالليل، لما الكل حشش جنب بعض على الفروع، أختها الكبيرة سألتها: «إزيك عشتي لوحدك الشتا كله؟ ما كنتيش خايفة؟»

نونو فكرت شوية، وبعدين قالت ببساطة: «كنت خايفة كل يوم. وكل يوم كنت بعمل الحاجة الصح على الرغم من الخوف. طلعت دي هي الشجاعة، ولا حاجة تانية.»

وسكتت، وحطت راسها تحت جناحها، ونامت نوم العصافير اللي طارت نهار، واختارت الطيران بنفسها.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.pages.dev